



-1-

لا أستطيع أن أنسى تلك المشاهد: جثث الغرقى منثورة على رمال الشاطئ، طفلة صغيرة ميّة رفعوها عن الأرض فتهذلت ككيس من قطن، صورة طفل رضيع لم يعرف أحداً مصيره، فيبحث أبواه عنه يومين ثم أيساً من العثور عليه، فانطلقوا إلى دول الشمال وما يعرفان: أي خلافان وراءهما ميّتاً فيرثي أم حياً فيرجي؟!

ما حملكم على ذلك يا أحراز سوريا؟ لماذا أتعبتم قلوبنا فحملتمونا همّاً فوق هم، وزدتكم الألم ونشرتم الملح على الجراح؟ أفرارُ من قدر إلى قدر؟ وما أدراكم أنكم في بلدكم بين أهليكم أكثر أماناً منكم في لج البحر؟

أيُّ يوميٌ من الموت أفرِّ؟ *** يوم لا يُقدرُ، أو يوم قُدِرُ؟
يوم لا يُقدرُ لا أحذرهُ *** ومن المقدور لا ينجو الحذر

-2-

ما الذي يدفع السوريين إلى الهجرة بقارب الموت وهم يعلمون ما يكتنف تلك الرحلة من أهوال وأخطار؟ إنما هما سببان: خوف من واقع حاضر، أو رغبة في حياة أفضل.

لو طوّقنا في سوريا كلها من أدنىها إلى أقصاها فلن نجد مساحة آمنة، ولا شبراً في شبر، فقد أحال النظام المجرم حياة السوريين جميعاً إلى خوف، خوف من الموت بالقصف في المناطق المحررة، ومن الجوع والمرض في المناطق المحاصرة،

ومن الاعتقال والتعذيب في المناطق المحتلة، فَمَّا لم يجد كثيرون من السوريين إلا الفرار بأنفسهم وأولادهم إلى بلاد الحرية والأمان. هل يُلامون؟

لا نستطيع أن نلوم من يعيش في عين الخطر فيصبح وُيُسمى على رائحة الموت إذا فكر في الهجرة والفرار. ليس لوم أولئك المعذَّبين حقاً لي ولا لأمثالِي من الآمنين، ولكن النصيحة حق للأخ على أخيه، فما يمكن أن نقدمه هو رأي ونصح لا عتاب وتنزيه.

-3-

من كان يعيش في المناطق المحتلة في خطر حقيقي، كأن يكون ناشطاً مكتشوفاً مطلوباً بالاسم، فإن هجرته مبررة، بل إنها واجبة، وهو يطأب بالخروج من منطقة الخطر حفاظاً على نفسه لأنَّه سيُعتقل عاجلاً أو آجلاً. ولكننا لن ننصحه أبداً بركوب البحر والهجرة إلى البلد البعيد، بل سنقول إنَّ هجرته واجبة ابتداءً إلى المناطق المحررة، ففيها يتبعُ عن الخطر ويصبح في أمان نسبي ويستطيع مواصلة نشاطه الثوري وهو وسط أهله وذويه.

لكن ماذا لو أنه تعب أو يئس وأراد التقادم والانسحابَ من الثورة والهجرة من سوريا كلها، أُنْسِطِعُ منعه؟ لا، ولا نستطيع كذلك منع سواه من الذين يريدون الهجرة بحثاً عن حياة مادية أفضل، ولكننا ننصح الاثنين قائلين: إذا كنت عازماً على الهجرة ولا بدَّ فلماذا لا تهاجر إلى بلد قريب، إلى تركيا؛ إنك – لو فعلت – لن تركِّب البحر وتختاطر بنفسك وزوجك وبنيك، وسوف تعيش مكرماً في بلد آمن تجد فيه فرصة للعمل والاستقرار وتعليم الأولاد، وستظل قريباً من سوريا فتعود إليها ولو في زيارات متقطعة بين حين وحين، وإن كنت راغباً بالمساهمة في النشاط الثوري فما أكثر المؤسسات الثورية التي تعمل على الأراضي التركية.

-4-

تخبرنا الإحصاءات التي نشرتها منظمة الهجرة الدولية أنَّ الضحايا المؤوثقين للهجرات غير الشرعية بقارب الموت في البحر المتوسط بلغوا ثلاثة آلاف في النصف الأول من هذا العام، أي أنهم سيبلغون ستة آلاف إذا بقي معدل الهجرة كما هو الآن. فإذا عرفنا أنَّ هذا المعدل في ازدياد أسبوعاً بعد أسبوع، وليس شهراً بعد شهر، وأنَّ رحلات كثيرة لا يمكن تَعَقبُها ومعرفة مصير راكبها بسبب الطبيعة السرية للهجرة غير الشرعية، فإننا نستطيع أن نقدر عدد الضحايا خلال هذه السنة بعشرين ألفاً غريق على الأقل.

عندما نقيس هذا العدد إلى عدد الذين نجحوا في الوصول إلى البر الأوروبي في عام كامل، وهم مئة وثلاثون ألفاً، فسوف نكتشف أنَّ نسبة الخطر تبلغ ثمانية في المائة تقريباً. أي أنَّ ثمانين سوف يموتون غرقاً من كل ألف مهاجر. هل فكر أحدٌ من المهاجرين في مقارنة هذه النسبة بنسبة الخطر في المناطق المحررة التي تتعرض للقصف اليومي؟ إننا نفقد نحو عشرين ألف شهيد بسبب كل أنواع القصف العشوائي على المناطق المدنية في عام كامل تقريباً، ويبلغ عدد الذين يعيشون في تلك المناطق قرابة عشرة ملايين. أي أنَّ اثنين من كل ألف مدني سيموتون بالقصف في المناطق المحررة في سوريا في سنة كاملة.

النتيجة الصادمة: إنَّ الحياة عاماً كاملاً في المناطق الخطيرة في سوريا أكثر أماناً بأربعين ضعفاً من رحلة واحدة في قوارب الموت.

-5-

لو اقتصر الخطر على النفس لقلنا للمهاجر: خاطر بنفسك إن شئت. ولكن أولئك المهاجرين لا يخاطرون بأنفسهم فحسب؛ إنهم يخاطرون بأطفالهم الصغار الذين ابتلع البحر منهم إلى اليوم مئات ومئات ومئات. **كيف يطيب لأبوين أن يركبا مع طفلهما مركباً من تلك المراكب** وهم يعلمان أن الاحتمال كبير بأن يصلا إلى الطرف الثاني من البحر بلا طفل أو يصل الطفل بلا أبوين؟

ولا تظنوا أن المخاطرة تقتصر على الغرق وحده يا من عزتم على الهجرة، بل إن الخطر أكبر من ذلك بكثير. في بعض الرحلات فصل المهرّيون بين الرجال والنساء وساقوا كلّاً منهم إلى جهة، ثم اعتدوا على بعض النساء أو اختطفوا فتيات لم يعرف مصيرهن إلى اليوم. وفي رحلات كثيرة جرّدوا المهاجرين من كل ما يملكون، من الأموال والحظي وأجهزة الاتصالات والوثائق الشخصية. وفي رحلات أخرى سلّموا المهاجرين لعصابات إيطالية أو يونانية، وانتهت بعض الرحلات بإغراق المراكب عمداً فمات من مات وأنقذت سفن الإنقاذ آخرين، وفي مرة من المرات قذف المهرّيون المهاجرين على جزيرة صغيرة مقابل البر التركي وتركوهم بلا طعام.

-6-

ليست الرحلة في قوارب الموت مغامرة كأي مغامرة، إنها مخاطرة بالنفس والنفيس، إنها مقاومة بالأرواح والأولاد. **أيقامر عاقل بنفسه أو بزوجته أو بأطفاله على طاولة قمار؟**

إن المهاجرين يُسلّمون أنفسهم، الرجال والنساء والأطفال، للقراصنة والمهرّيون. ومن هؤلاء المهرّيون؟ أهم خيرة خلق الله في الأرض؟ إنما هم عصابات من شرّار الخلق، يُسلّم المهاجرون لهم أنفسهم وهو ضُعْف عُزلٌ من أي سلاح، والمهرّيون والقراصنة أقوياء مسلحون، فكيف تطيب نفسك يا - أيها السوري الحر - بأن تضع نفسك وزوجتك وأبنائك وبيناتك تحت رحمة من لا يؤمن على نفسِه ولا عرضِه ولا مال؟

فإذا صاروا في البحر بدأت رحلة الأهوال والأخطار. يحشر أولئك القراصنة والمهرّيون المئات من المهاجرين المساكين في قوارب بالية متهاكلة لا يكاد الواحد منها يتحمل - وهو جديد - مئة من الناس، فكيف يقطع وهو صدئ قديم ممتلئ بأضعاف ما يحتمله من عدد، كيف يقطع وهو كذلك الرحلة وسط الموج الهادر الذي يبلغ ارتفاعه في بعض الأحيان أربعة أمتار أو خمسة أمتار؟ تخيلوا قارباً من تلك القوارب التي نراها في الصور وقد تقدس فيه الرجال والنساء والأطفال كما يتقدس سمك السردين في العلب، تخيلوه وهو يرتقي موجةً ارتفاعها كارتفاع بناء من طابق أو طابقين! كم تبلغ فرصة مثل هذا القارب بالنجاة؟

لذلك لم يكن غريباً أن يغرق قارب من كل خمسة، وأن يهلك واحد من كل تسعة من المهاجرين التعساء!

-7-

فإذا وصل المهاجرون إلى البر الأوروبي استقبلتهم مصاعبٌ ومتاعبٌ لا تحصى، فيتعرضون كثيرون منهم إلى الإهانة والاعتقال، وربما أُعيدوا إلى حيث كانوا. وما يزال المئات من السوريين عالقين في السجون في مالطا منذ عام.

ويبقى بعد ذلك كله الخطر الأكبر على المدى الطويل: إن الذاهبين إلى تلك البلاد **قلماً يعودون**. إنه ليس قراراً ليومك وغدك يا أيها المهاجر، إنما هو قرار لبنيك وحَدَّدْتَكَ وذرِيتَكَ من بعد. يقولون إن في الأمريكتين عشرة ملايين سوري. من أين جاءوا؟ إنما هم ثمرة هجرات أهل الشام خلال النصف الأول من القرن المنصرم، من أيام "سفر برلوك" وما تلاها من أيام شِداد، ولكن ماذا بقياليوم من شامية أولئك الشاميّين وعربّية أولئك العرب وإسلام من كان منهم من المسلمين؟ لقد فقدت بلدُ

الشام أولئك الملايين من أبنائها إلى الأبد، وفقدوا هم وأولادهم إلى الأبد اللغة والدين.

لا تستهينوا بتحدي الحفاظ على الهوية في بلاد المهجـر، فإن قليلاً من الناس من يستطيع تجاوز هذا الاختبار العسير بنجاح. لا أقول إن كل مهاجر يضيـع اللغة والدين، بل إنّ من المهاجرين مـن ينشأ أولاده أحسن عـربية وأكثر التزاماً بالدين من الملايين الذين يعيشون في بلدان العرب والمسلمـين، ولكنـي أتحدث عنـ الحـالة العامة والـقـاعدةـ الغـالـبةـ، وهيـ أنـ الأـكـثـرـينـ يـضـيـعـونـ؛ـ إنـ لمـ يـضـعـ الجـيلـ الثـالـثـ ضـاعـ الثـالـثـ،ـ وإنـ سـلـمـ الثـالـثـ ضـاعـ الذـيـ بـعـدـهـ،ـ وماـ يـزالـ الخـطـرـ قـائـماـ عـلـىـ الدـوـامـ فـيـ الـآـيـاتـ الـأـيـامـ.

-8-

كلمة أخيرة إلى من عزم على الهجرة فبحث عن المهربيـن أو وصل إليـهمـ واتـفقـ معـهـمـ ودفعـ إـلـيـهـمـ المـالـ،ـ ثمـ قـرـأـ هـذـهـ المـقـاـلـةـ فـلـمـ تـنـجـحـ فـيـ إـقـنـاعـهـ بـالـعـدـولـ عـنـ فـكـرـتـهـ،ـ أـقـوـلـ لـهـ:ـ إـنـ كـنـتـ لـاـ بـدـ فـاعـلـاـ إـنـيـ أـذـكـرـكـ بـأـنـ أـوـلـادـكـ أـمـانـةـ فـيـ عـنـقـكـ،ـ وـإـنـيـ أـسـتـحـافـكـ بـالـلـهـ أـنـ لـاـ تـغـمـضـ عـيـنـيـكـ وـتـمـشـيـ مـعـ الـمـهـرـبـيـنـ كـالـمـسـحـورـ بـلـاـ عـقـلـ وـلـاـ إـدـراكـ.

انسحب في أي لحظة تشعر فيها بالخطر. إذا طلب المـهـرـبـيـنـ فـصـلـ الصـفـارـ عنـ الـكـبـارـ أوـ النـسـاءـ عنـ الرـجـالـ فـلـاـ تـرـضـيـخـ وـلـاـ تـسـمـحـ لـبـقـيـةـ الـجـمـاعـةـ بـالـرـضـوخـ.ـ إـذـاـ غـيـرـ الـمـهـرـبـيـنـ الـاتـفـاقـ فـطـلـبـواـ الـمـزـيدـ مـنـ الـمـالـ فـلـاـ تـدـفعـ،ـ فـإـنـهـ اـسـتـزـافـ لـيـسـتـ لـهـ نـهـاـيـةـ.ـ إـذـاـ وـصـلـتـ إـلـىـ الشـاطـئـ فـرـأـيـتـ قـارـبـاـ عـتـيقـاـ مـهـرـئـاـ فـارـجـعـ وـلـاـ تـرـكـ،ـ وـحـثـ غـيرـكـ عـلـىـ الرـجـوعـ.ـ لـاـ تـشـارـكـ فـيـ رـحـلـةـ لـاـ تـوزـعـ سـتـرـاتـ نـجـاةـ عـلـىـ جـمـيعـ الرـكـابـ.ـ إـذـاـ أـرـادـ الـمـهـرـبـيـنـ رـصـنـ الـعـدـدـ الـكـبـيرـ فـثـرـ عـلـيـهـمـ أـنـتـ وـأـصـحـابـكـ وـارـفـضـ أـنـ تـرـكـ أـوـ تـرـكـ أـطـفـالـكـ،ـ إـنـ هـذـاـ سـيـكـونـ خـطـ دـفـاعـكـ الـأـخـيـرـ وـتـلـكـ آـخـرـ طـلـقـةـ فـيـ جـعـبـتـكـ،ـ وـهـيـ قـدـ تـكـونـ الـفـيـصـلـ بـيـنـ الـمـوـتـ وـالـحـيـاـةـ.

أخـيراـ إـنـيـ أـرـجـوكـ أـنـ تـجـعـلـ لـآـخـرـتـكـ نـصـيـباـ مـنـ نـيـتكـ.ـ مـهـماـ يـكـنـ الدـافـعـ الذـيـ دـفـعـكـ إـلـىـ الـهـجـرـةـ أـضـفـ إـلـيـهـ نـيـةـ صـالـحةـ،ـ رـغـبةـ وـعـزـيمـةـ عـلـىـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ دـيـنـكـ وـدـيـنـ أـوـلـادـكـ،ـ وـعـهـدـاـ عـلـىـ أـنـ لـاـ تـنـسـىـ بـلـدـكـ وـثـورـتـكـ،ـ فـتـعـمـلـ مـنـ أـجـلـهـمـاـ وـتـقـدـمـ مـاـ يـسـعـكـ تـقـدـيمـهـ لـهـمـاـ حـيـثـمـاـ كـنـتـ،ـ غـداـ وـيـعـدـ غـدـ وـفـيـ كـلـ حـيـنـ.

المصادر: